المحاضرة الحادية عشر: النكت الشعبية.

تمهيد:

تعد النكتة الشعبية إحدى ركائز الأدب الشعبي ذات الصلة القوية بالمجتمع، وكل ما يدور في فلكه من قضايا في جميع الميادين، كما أنها تحمل بين طياتها دلالات تعبر بحق عن طبيعة النمط الفكري والاجتماعي والثقافي السائد داخل المجتمع، وهي بذلك تعتبر مرآة عاكسة لتجارب الشعب وفلسفته في الحياة وحكمته، من أجل توجيه الفرد في حياته اليومية الاجتماعية، فهي بذلك تحمل رسالة أقوى من الكلمات الجادة، وتصل لغايتها بطريقة سهلة، ويتناقلها الأفراد بناء على إعجابهم بجمالها وذكائها ومهارتها وخفتها، فهي مركب بالغ التأثير في إيصال الأفكار وتوجيه المجتمعات.

أولا ـ مفهوم النكتة الشعبية:

1ـ لغة:

يقول الزمخشري: ((نكت: نكت الأرض بقضيبه أو بأصبعه، فأقبل ينكت الأرض، ومر الفرس ينكت الأرض في عدوه: إذا بنا عن الأرض في عدوه، ونكت العظم: اخرج مخه، ونكت كنانته: نكبها، وطعنه فنكته على رأسه: ألقاه، وبالبعير ناكت: حاز ينكت بمرفقه حد كركرته، وفي العين نكتة: بياض أو حمرة، وكل نقطة من بياض في سواد أو سواد في بياض))[1].

أما ابن فارس فيقول: ((نكت: النون والكاف والتاء أصل واحد يدل على تأثير يسير في الشيء كالنكتة))[2].

2 ـ اصطلاحا:

النكتة الشعبية ظاهرة اجتماعية تتحرك في شكل موجات، في ظروف فرضتها طبيعة الواقع المعيش، وهي تشكل إفرازا لمشاعر ومواقف وآراء لا تدل على شخص صاحبها، وغالبا ما تنشط في حالات الضغط الاجتماعي أو الإحساس بالقهر، ولا يعرف كيف تبدع أصلا ومن أين تأتي، إلا أنها آلية من الآليات التي أبدعتها الجماعة الشعبية للهزل والضحك، وهي وسيلة للتنفيس والتعبير عن المشاعر والأفكار المحرمة والمكبوتة، فهي ((موقف ورأي ساخر من موضوع ما، وبالتالي تريد نقل هذا الموقف وهذا الرأي للآخرين وإحساسهم به، من أجل كشفه ومعرفة كنهه وما يحتويه من عيوب ومفارقات اجتماعية مختلفة، في ثوب خفيف ترفيهي وفكاهي))[3].

إن تداول النكتة وإن كان يبدو في شكل مضحك، فهو لا يتوقف في رسالته عند مستوى الضحك، بل يهدف إلى نقد الموضوع والسلوك والموقف وتعريته وإثارته، فهي شكل أدبي شعبي مختلف في اللغة والأداء، فهي اجتماع المغزى الترفيهي الذي يؤدي إلى الضحك مع المغزى الاجتماعي والخلقي وحتى

---

[1]ـ الزمخشري، أساس البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003، ص 876.

[2]ـ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مج 5، ص 475.

[3]ـ سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 82.

السياسي في الإصلاح خاصة، فالغاية منها هو فهم المعنى الباطني العميق لا المعنى السطحي، لأن اللغة في النكتة هي بؤرة اختلافها عن الكلام العادي، وليست الغاية منها الإخبار عن الشيء، وإلا لما كانت نكتة، فهي تستخدم معنى خفي غير ظاهر، وهو الذي يثير الضحك عند إدراكه، وبذلك تكون تلاعبا لفظيا، الغاية منه إدراك المعنى الخفي المقصود من الكلام.

فالنكتة الشعبية ـ بهذا المنظور ـ تعد من أكثر فنون التعبير الرمزية الشعبية انتشارا بين الناس، لسهولتها في التداول، ولأنها تتغلغل في نسيج العلاقات الاجتماعية حاملة قيم المجتمع وتقاليده عبر الأجيال بلغة الشعب، فهي ((لا تتوقف عند موضوع معين ولا تختص بفئة أو طبقة خاصة، فهي تسير بين الناس كالعملة اليومية))[4].

ثانيا ـ وظائف النكتة الشعبية:

النكتة ظاهرة اجتماعية تقوم بوظائف متعددة، بالإضافة إلى التسلية، فهي تخفف من حدة التوتر والحقد والعداء، وتسعى إلى نشر الفضيلة وتقويم الإعوجاج، وفضح الانحراف كما تعد وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي، إنها استعمال براغماتي للغة، فعبرها يمكن للناس أن يُبلغوا مواقفهم ومعتقداتهم ورغباتهم وميولاتهم بشكل ملتو بعيد عن أعين الرقابة. الشيء الذي لن يتأتى لهم بوسيلة أخرى، فعن طريقها يمكن التعامل مع المواضيع المحظورة بسهولة ويسر، إنها بفضل مظهرها الخادع وشكلها المُحكم الصنع، تخفي أنها تحمل أي رسالة وبالأحرى موضوعًا مُحرمًا. وكمثال على ذلك النكت الجنسية التي تستعمل وسيلة لتبليغ الرغبة بطريقة غامضة لكنها مفهومة، بالإضافة إلى التسلية والتعبير عن الأفكار المحظورة أو المحرمة تؤدي النكتة وظيفة أخرى، خصوصًا النكتة المبنية على اللغة أو اللعب بالألفاظ، إذ تسهم هذه النكتة في ترسيخ روابط الألفة بين الأفراد خصوصًا منها الفئة الشعبية، كما تساعد على تقوية روابط الصداقة والأخوة فيما بينهم، وتزيد من جاذبية المنكت لدى جمهور المستمعين.

ثالثا ـ مكونات فعل التنكيت وشروطه:

المقصود بمكونات فعل التنكيت الأطراف المشاركة في هذا الفعل، إذ بانعدامها أو انعدام أحدها يفشل هذا الفعل. ويمكن إجمال هذه المكونات والشروط التي يلزم أن تتوافر فيه فيما يلي:

1ـ الإطار: وهو مجمل الشروط الاجتماعية المرتبطة بالبيئة والمحيط والزمن الذي تلقى فيه النكتة، فلكي يفلح الفعل الفكاهي يجب أن يكون موافقًا للظروف الاجتماعية التي تحدث فيها، فالإطار عنصر مهم يحدد إذا كانت النكتة مقبولة أم لا.

فالتنكيت ليس دائمًا ممكنًا وفي جميع المناسبات، ففي المجتمع الإسلامي لا يمكن التنكيت في الأماكن المقدسة كالمساجد أو وقت الصلاة، وفي أثناء تشييع الجنازة، لكن هناك مناسبات أخرى يستحب فيها التنكيت كمجالس الأصدقاء، غير أن عنصر البيئة يختلف من ثقافة لأخرى، ففي بعض المجتمعات يسمح

[4]ـ إدريس كرم، سلسلة الفكاهة في الأدب الشعبي بالمغرب، مطبعة الأمنية، المغرب، دت، ص 32.

بالتنكيت في أثناء الجنازة لتحول هذه المناسبة الحزينة إلى مناسبة سارة. وما على المشارك في فعل التنكيت إلا أن يكون واعياً بالقواعد والشروط التي تحكم زمن ومكان التنكيت، فكما قالت العرب " فلكل مقام مقال".

2ـ المشاركون: كما لا يستطيع المنكت التنكيت متى أراد وأنى أراد، فإنه لا يستطيع فعل ذلك مع أي كان، فالتنكيت يسمح به في أثناء التفاعل الاجتماعي بين الزملاء في العمل وبين الأصدقاء والمعارف الذين تجمع بينهم مودة.

ولعل من بين شروط نجاح فعل التنكيت بين المشاركين أن يكونوا من نفس السن والجنس والمستوى الاجتماعي، مع تفاوت بالطبع من مجتمع إلى آخر. غير أن هذه المودة والعلاقة بين المشاركين لا تكفي وحدها لنجاح هذا الفعل، إذ لا بد من توافر شروط أخرى لها علاقة بالتواصل.

3ـ القواعد اللغوية: لكي تنجح النكتة يلزم أن تتوفر لدى المتكلم والسامع ملكة لغوية تمكن الأول من الإفصاح والتبليغ، وتساعد الآخر على فك رموز النكتة وتبين مواطن المفارقة. خصوصًا في النكت المبنية على اللغة والتلاعب بالألفاظ. ومن ثم ففهم نكتة واستيعابها مرهون بتملك ناصية اللغة، كما أن الفشل في حل رموزها يبين أن المتعلم يحتاج لمزيد من الممارسة، وأنه بعيد عن امتلاك اللغة، وبما أن النكت اللغوية تنبني على جميع المستويات: المعجمي والدلالي والفنولوجي والتركيبي، فإن البعض يرى فيها أفضل وسيلة لتعلم اللغة واكتساب قواعدها.

4ـ الخلفيات الثقافية: لا يعني أن امتلاك اللغة شرط كافٍ لفهم النكتة، بل لا بد إضافة إلى ذلك من توفر شرط الاشتراك في الخلفية الثقافية، ذلك أن هذه الخلفية المتقاسمة بين المشاركين في الفعل الفكاهي وثيقة الصلة بفهم النكت، خصوصًا منها تلك المعتمدة منها على الثقافة. ولهذا نرى أن النكت تتضمن جملة من الإشارات الثقافية والحضارية التي يصعب فهمها خارج سياقها.

رابعا ـ أقسام النكتة حسب فرويد:

يقسم فرويد النكتة حسب مقصديتها إلى نكتة مغرضة (mot d'esprit tendacieux) ونكتة بريئة (mot d'esprit innocent)، فالنكتة المغرضة هي التي ترمي إلى إشباع الميول والنزعات الجنسية والعدوانية، تلك الميول الأساسية المرتبطة بالحياة النفسية للإنسان، ومن نماذج هذا النوع النكت الماجنة أو الخليعة التي تشبع رغبات منعها الكبت أو كبحتها الأعراف الاجتماعية وحالت دونها. أما النكتة البريئة أو المجردة كما يسميها (esprit abstrait) فتعتمد على اللغة واللعب بالألفاظ، ولا تحمل أي شحنة عدوانية، ويرجع فرويد النكتة في جميع الحالات إلى اقتصاد الجهد النفسي[5].

خامسا ـ تقنيات إنتاج النكتة:

وبعد أن تطرقنا إلى أقسام النكتة لا بأس أن نُدرج بعض التقنيات التي تشتغل عليها النكتة. وقد قسمها فرويد إلى ثلاثة أقسام وهي: التكثيف والنقل والترميز أو التمثيل غير المباشر.

---

[5]ـ ينظر: عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك؛ رؤية جديدة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003، ص393.

1ـ التكثيف: يحصل التكثيف في النكتة بالتركيب بين كلمتين تركيباً مزجيًّا أو بأحداث تعديل بسيط على الكلمة نفسها، أو بإيجاد لفظة جديدة أو باستعمال نفس الكلمة أو الاسم (مرة كاملة ومرة أخرى مجزأة) بمعنى مغاير يثير الضحك. والتكثيف عمومًا، مظهر من مظاهر الإيجاز والاختصار، الذي يعكس بدوره الاقتصاد في الجهد النفسي الذي تنهض به النكتة.

2ـ النقل: تعتمد مجموعة أخرى من النكت على إستراتيجية النقل والتحويل، وهو تحويل في مجرى الأفكار الناتج عن التباس وسوء تفاهم أو تفسير عكسي، وهذا ما تقف عليه في النكت التي تنبني على الحوار، سواء أكان بين الأشخاص، أم كان مفترضًا بين الكاتب والقارئ، فقد يركز أحد المتحاورين على عنصر من عناصر الخطاب بينما ينصرف ذهن الآخر إلى عنصر مغاير، وكمثال على النقل والتحويل نذكر النكتة الآتية.

جاء على لسان أحد الساخرين المغاربة من أن "أكبر سد في المغرب العربي هو سد فمك"، فهذا مثال على التكثيف، حيث تكررت كلمة سد باستعمالين مختلفين، ومثال النقل أيضًا؛ إذ ينتقل ذهن السامع بصفة مفاجئة من كلمة سد الأولى التي توحي له بعالم السدود والزراعة، حيث يتوقع أن الخطاب جاد، غير أن بقية النكتة تحوله أو تنقله إلى معنى آخر ذي إيحاءات سياسية هو ضرورة سد الفم أو لجمه، لأنه قد يكلف صاحبه حريته في هذه البلدان.

3ـ الترميز: نجده في النكت التي تعتمد على التلميح والإشارة أو المقارنة التي تستند على الإضمار أو الحذف، وأغلب النكت السياسية والجنسية تعتمد على تقنية ذكر الساسة بأسمائهم. حتى إن مجرد ذكر أسمائهم يُعدُّ أفق انتظار يفتح شهية السامع، ويثير ابتسامته، ومن هؤلاء من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر.

وحاصل القول، يتضح بأن فعل التنكيت قد اعتمد على جملة من الميكانيزمات، لتحقيق المطلوب منه داخل محيطه السوسيو ثقافي، ومن ثم يصبح آلية من آليات التخاطب اليومية المحملة بشحنات دلالية ورمزية وثقافية طافحة بالمعنى.

سادسا ـ الخصائص الفنية والشكلية للنكتة الشعبية:

1 ـ الشكل التعبيري: حيث تحتاج النكتة إلى الكلمة التي سرعان ما تجد ردة فعل عند سماعها، والتي تعكس روح الشعب وتجاربه ومشكلاته.

2 ـ الأثر النفسي: الذي تحدثه النكتة، فهي تخلف استعداد للضحك تتلاشى معه روح النقد.

3 ـ تسد النكتة الشعبية احتياجات ودوافع خفية، تنشأ عن إحساس الإنسان بعقبات تحول دون تحقيقه لرغباته كليا.

4 ـ تحميل اللامغزى المغزى كله: ذلك لأن الغاية من تداول النكتة الشعبية هو التنفيس عن الرغبات والمشاكل النفسية والاجتماعية، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان حوّلنا وعي الإنسان من الشيء الكبير إلى الشيء الصغير دون سابق إنذار، وهذا التحول يؤدي إلى إدراك المغزى، وهو السبب الحقيقي والأساسي في خلق جو الضحك.

5 ـ مراعاة حال السامع: تتطلب النكتة الشعبية كغيرها من النصوص الأدبية وجود طرفين: قائل النكتة وسامعها (المرسل والمرسل إليه)، ويجب أن تكون مراعية لحال السامع لكي تحدث أثرا فيه.

6 ـ اقتصاد الكلمات: تتميز النكتة الشعبية بالاختصار والإيجاز وتأدية المعنى في أقل لفظ ممكن.

7 ـ ارتباط النكتة الشعبية بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي تعيشه الجماعة الشعبية التي تنتجها وتتداول فيها.

خاتمة:

وفي الختام نقول: تطلق النكتة الشعبية العنان للمكبوت والمسكوت عنه، حيث تعبر من خلال تعابير رمزية عن المخزون الثقافي والسياسي المجتمعي، لتشكل مرآة صادقة لما تحمله من قيم ومعتقدات وممارسات وتصرفات، وتكشف من جهة أخرى ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ عن الجوانب الخفية للمجتمع، سواء كانت في شكل مواقف أم تطلعات أم رغبات مكبوتة، لتحقق من خلال ذلك عددا من الوظائف الاجتماعية والفردية.